

المحاضرة رقم 02:

مدخل إلى الفنون النثرية الجزائرية.

1- مقارنة تأسيسية:

امتدت أيادي الغزو الفرنسي للجزائر بعدما انهارت الدولة الجزائرية سياسيا على يد الحكم العثماني. وتحول ذلك الغزو إلى سياسة استعمارية أعلنت حربها على مجتمع كان يعج بالحياة. وكان من الناحية الاجتماعية خاليا تماما من كل معالم الأمية، فكان يحسن القراءة والكتابة. و«كانت قبل الاحتلال الفرنسي الكتاتيب والمساجد والزوايا منتشرة في جميع أنحاء البلاد يتلقى النشء فيها ثقافته العربية الإسلامية. فلا يجهل الاستعمار أن العلم سيف قاطع. فإذا تسلح به الجزائري أمكنه أن يقاومه. فسعى حينئذ في تجهيل الأمة الجزائرية. فشغله الشاغل هو إفناء العنصر الإسلامي بالتفكير وتجهيل ما بقي منه، وما هي إلا فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم. إلا أنه في سنة 1883 أخذ يفتح أبواب مدارس في وجه أبناء الجزائر، لكن التعليم كان فرنسيا بحتا. فكيف لا والجزائر أصبحت عندهم قطعة من فرنسا ولغتها الفرنسية. ولم يكن القصد من تعليم الجزائريين الاستجابة لصوت الأمة المتعطشة للعلوم والعرفان وإنما تقريبيهم من فرنسا بواسطة اللغة الفرنسية حتى يسهل ابتلاعهم وإدماجهم»⁽¹⁾. وبفعل كل ذلك الطغيان لم يعد المجتمع الجزائري في كامل قواه. بل أصبح مهلهلا، لا يملك أي سلاح يواجه به. وأصبح يفتش بين امتزاج لغتين، ولهجات محلية متباينة عن ذاته وسط هذا الركام. وكذلك كانت أهداف فرنسا تظهر حينها بعد حين. بل إنها احتفلت بعد مرور قرن من الغزو (سنة 1930)، بالجزائر الجديدة التي فقد فيها الشعب مقوماته الحضارية والعقيدية، في اللغة والدين، حسب زعمها.

ولعل الملاحظ في الأمر أن البدايات الأولى لتلاشي الشخصية الفكرية الجزائرية قبيل الاحتلال، قد تجلت في مظاهر العزلة، والانغماس في تفاصيل عصر الضعف على الرغم من وجود منظومة فكرية وثقافية توحى بأنها بخير، وفي ذلك يقول الباحث عبد الملك مرتاض: «كانت الثقافة العربية في الجزائر، قبيل الاحتلال بخير... وظلت هذه الثقافة قائمة الذات، ولكن وجودها كان شاحبا فيه خوف وخجل، وعليه مسحة من غبار الانحطاط العقلي، وفي روحه دعر من اضطهاد الاستعمار، فإذا المثقفون الجزائريون بين فار بثقافته أو مهاجر بها»⁽²⁾. ولكن الهيمنة الاستعمارية الفرنسية كانت أقوى، وتحركت في جميع الاتجاهات، معتمدة ترسانة السلاح من جهة، وترسانة مثقفها، وأشياهم الجزائريين من أصحاب الولاء، من جهة ثانية. وراحت تنفث سمها في المدارس التي سمحت فيها لأبناء الجزائريين في التعلم فيها وفق البرنامج التعليمي الفرنسي. كما راحت تضيق الخناق على كل المراكز التعليمية الجزائرية ممثلة في الزوايا، والكتاتيب،... «ويمكن حصر الحياة الثقافية في مظهرين رئيسيين:

⁽¹⁾ محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. دت. ص 263.
⁽²⁾ عبد المالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1983. ص 34.

2- مظاهر الحياة الثقافية:

• المظهر الأول: ويشمل الاتجاهات الفكرية التي تتمثل خاصة فيما يلي:

أ- الاتجاه الصوفي.

ب- الاتجاه الإصلاحية.

ت- الاتجاه الأدبي.

• والمظهر الثاني: ويشمل الثقافة العربية في الجزائر وموقف الاستعمار منها.» (1)

إن الأدب الجزائري هو أدب يملك خصوصية مغايرة لباقي الآداب العربية الأخرى؛ فقد تميزت مسيرته عبر الحقب والأزمان بوجود الفراغات، والانقطاعات، بسبب خصوصية الرحلة الزمنية التي مر بين تفاصيلها في كنف المحن، والثورات، والاختلالات التي كانت تحيط به تارة تلو أخرى. وأضحى الدارس له يصاب بالتعب جراء تلك الانقطاعات التي حدثت. وأحدثت تأخرا في اكتمال خصائصه الفنية، وملامحه الأجناسية. ومنذ سنوات الاستقلال، لم يكن الاهتمام به من قبل الدارسين على قدر من الحفاوة التي كان يلاقيها أدب الشعوب العربية الشقيقة، وذلك حين ظن كثيرون بأن المستوى الفني له لا يغري بالبحث. وكان هذا التقصير من أبناء جلدته هو السبب المباشر الذي جعل العزوف عن دراسته أحد أقوى الأسباب التي جعلته يتأخر في الظهور، والتبلور، والتطور. لذلك يستوقفنا رأي الباحث الجزائري (أبي القاسم سعد الله)، الذي يقول: «كل باحث في شؤون الأدب العربي يصدمه الفراغ الذي تعانیه المكتبة العربية بخصوص الحركة الفكرية في الجزائر. ولعل مسؤولية هذا النقص تقع على كاهل المثقف العربي نفسه. فطيلة مرحلة النهضة العربية اعتاد هذا المثقف أن يحصر بحثه واهتمامه بجزء معين من الوطن العربي وإهمال الأجزاء الأخرى، مما تسبب عنه تمزيق الحركة الفكرية العربية وأقلمتها. ومن هنا ارتبط الأدباء غالبا بالأوضاع السياسية في كل جزء من الوطن العربي، وتبعاً لذلك تطورت الحركة العربية في شكل غير متساو. ولعل الجزائر خير شاهد على ذلك.» (2).

ويمكن الاستعانة في ضبط مراحل ظهور النثر الجزائري الحديث وفقا لمختلف المراحل الزمنية التي تميزت بالتحويلات، والأحداث التاريخية، وعلى رأس تلك المراحل، مرحلة ما بين الحربين العالميتين، وظهور الأحزاب السياسية، والحركات الوطنية، والإصلاحية. وقد أحسنت كثير من الحركات الوطنية في بلورة الحس الوطني، والانتماء الحضاري من خلال تبني خطاب سياسي، أو إصلاحي يراعي المستوى العقلي للمواطن الجزائري. وقد ظهرت كثير من الأشكال النثرية التقليدية المعروفة؛ كالخطابة، والرسالة، والمقالة، وغيرها. و«إن النثر أشد التصاقا بالأرض من الشعر، وقد تجلت هذه الحقيقة في النثر الجزائري بعامة، والرواية بخاصة. ذلك أن ظروف الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى قد ساعدت على ظهور المذهب الواقعي الذي وجد فيه الكتاب على اختلاف ميولهم وثقافتهم مجالا للتعبير عن واقع البلاد بما فيه من متناقضات وعزلة وحرمان، وما يكثر

(1) المرجع نفسه، ص35.

(2) أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط5. دار الرائد للكتاب. الجزائر 2007. مقدمة الطبعة الأولى ص6

فيه من دعاوي الحرية والوطنية والديمقراطية والرخاء في نفس الوقت الذي كان فيه الشعب يعاني من الشقاء المزمن والقيود الثقيلة.»⁽¹⁾

وإذا كان الاهتمام بالشعر في بداية الأمر ظل مسيطرا إلى حد كبير؛ فلأن النزعة التقليدية كانت هي الصانعة للذوق العام، المؤمنة بقدرة الشعر على جذب الانتباه، والاستحواذ على الألباب، والوجدان، والتأثير فيهما أكثر من تأثير النثر. وعليه «إذا كان الشعر الجزائري الحديث قد وجد عناية واهتماما من الدارسين تمثلت فيما قدم من أبحاث، تاريخا له أو نقدا أو على الأقل جمعا لنصوصه، إذا كان قد تحقق له هذا، فإن النثر لم يلق هذه العناية حتى الآن»⁽²⁾

ويمكن الاشتغال في المحاضرات المقبلة على مختلف الفنون النثرية التي برزت في الأدب الجزائري الحديث، وتفصيل محتواها الفكري والفني بالقدر الذي يتيح لنا معرفة مختلف الأجناس النثرية التي تفاعلت مع طبيعة التحولات الاجتماعية، والفنية في ساحة الأدب العربي عموما، والجزائري خصوصا.

⁽¹⁾ المرجع نفسه. ص56.
⁽²⁾ عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. 1974-1830. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص5.